مفهوم الجذر
عند النحاة العرب القدماء

جيرار تروپو
ترجمة: مبارك حنون(*)

يستعمل أغلب المستعربين، في حديثهم عن النسق الصرفي للغة العربية، مفهوم «الجذر». وتكفي ثلاثة تعريفات، يتيحها لنا الكتاب المعاصرون، لتعرفنا بما يفهمونه، بالضبط، من هذه اللفظة.

يعد الجذر، بالنسبة إلى بلاشير Blachère وكودفروا دومامبين Gaudefroy-Démombynes، «مجموعة من صامتين أو ثلاثة صوامت أو أربعة يعرضان أو تعرض مفهوماً محدداً. وبذلك يكون الجذر صامتياً صرفاً. بينما المصوتات، فهي ليست سوى عناصر اشتقاقية»[1]. أما بالنسبة إلى فليش Fleich، فالجذر «مكون من صوامت ترتبط بتجميعها فكرة عامة متفاوتة الدقة. وتتحقق هذه الفكرة في كلمات مستقلة من خلال توزيع المصوتات داخل هذا الجذر»[2]. وبالنسبة إلى دافيد كوهن David Cohen، فإن الجذر يعتبر «عبارة عن هيكل، مكون من متوالية ثابتة ومرتبة من عناصر صوتية تُحدِّد أصلها المعجمي. ويكون هذا الجذر صامتياً صرفاً. ويكون على هذا الجذر، ليتحقق، أن يأتلف مع عناصر صوتية أخرى: مصوتات أو مصوتات وصوامت»[3].

(*) جامعة قطر.

يبدو أن هذا المفهوم الذي يكونه المستعربون عن الجذر، قد استلهمته النظريات التي عبر عنها رينان Renan، في أواسط القرن الماضي. وبالفعل، فقد رأى رينان Renan أن خاصية من خاصيات اللغات السامية قد تمثلت في «سمة التعبير عن جوهر الفكرة بالصوامت،فيما يُعبر عن التغيرات الطارئة على الفكرة بالمصوتات» وقد كان يشدد على «الطريقة المجردةالتي تَصور بها الساميون جذرا معينا غير منطوق به، ومقترنا بعمليات نطقية ثلاثة،يدققه اختيار المصوتات»[4].

غير أن مفهوم «الجذر» هذا لا يستسيغه كل دارسي الساميات، فقد كتب أحد كبارهم، ويتعلق الأمر بكارل بروكلمان Carl Brockelmann في بداية هذا القرن:

«تعود كل كلمات اللغات السامية، على وجه التقريب، إلى مجموعات مكونة من ملفوظات ترتبط دلالتها المشتركة الأولية بثلاثة صوامت».

ويتابع، بعد ذكره كلمات عبرية عديدة ذات أصل مشترك، قائلاً:

«نحدد عادة هذا الأصل باستعمال لفظة «جذر»، وهي لفظة روجها النحاة اليهود. غير أن المفاهيم الخاصة المتفاوتة التحديد هي وحدها، في حياة اللغة، التي تلتصق بالكلمة؛ وليس من المتعذر أن ندعم اعتبار هذه الجذور السلف التاريخي للكلمات الحقة. فالنحو غير معني بالجذور، وإنما هو معني بكلمات تامة»[5].

وكان العالِمُ نفسُه، وهو، بالمناسبة، باحث في اللغات السامية المقارنة، قد صرح من جانب آخر:

«ليس الجذر سوى تجريد، وإن كان يوفر خدمات جُلَّى في موضوع تنظيم المعجم. غير أن... مفهوم الجذر ليس قابلاً للاستعمال في الصرف، إذ يتعين على الصرف أن ينطلق،

بالأحرى، من أشكال الكلمات التي عاشت أو ماتزال تعيش وجودها الخاص»[6].

وقد كتب كانتينو، سنة 1950م، وهو يتغيا دحض تصريح بروكلمان هذا، الذي وصفه بالخاطئ، مقالاً أصبح شهيراً، أبان فيه أن «نسق الجذور مبدأ من المبدأين اللذين تُنظَّم وفقهما كل مفردات اللغات السامية وتُصنَّف، لا في معاجمنا فحسب، وإنما تُنظَّم وتُصنَّف في اللغة تنظيماً وتصنيفاً واقعيين»[7].

وأمام هذه الآراء المختلفة لدارسي الساميات، يتعين على مؤرخ النظريات النحوية أن يتساءل عما كانه شعور النحاة العرب القدماء تجاه هذا الموضوع، الهام من زاوية النظر الإبيستيمولوجية. وبتعبير آخر، هل كان هؤلاء النحاة يعرفون مفهوم «الجذر»؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما المفهوم الذي كان لهم عنه؟ وعن هذا السؤال سنحاول أن نبحث عن الإجابة، ونحن نسائل على التوالي بعض النحاة والمعجميين العرب، وذلك ابتداء من القرن الثامن إلى غاية القرن الخامس عشر.

ونبدأ بحثناهذا بأن نطلب من أقدم نحوي، وهو سيبويه (المتوفى سنة 794هـ)، ومن أقدم معجمي، أي الخليل (المتوفى سنة 792هـ)، تقديم نظريتيهما حول تكوين الكلمات.

تتكون الكلمات، بالنسبة إلى سيبويه، من ثلاثة، أو أربعة أو خمسة حروف، إذا لم تعرف النقص، أو الزيادة؛ ففي حالة النقص، تكون الكلمات من حرف أو حرفين، وفي حالة الزيادة، تكون الكلمات من ستة أحرف أو سبعة. وقد بُنيت الكلمات، بالنسبة إليه، وفق أشكال مثَّلها النحوي من خلال بدائل paradigmes. ويمكن لهذه الأشكال أن تزاد أو ألا تزاد، وتلك هي حالتها الأصلية. وتتحقق الزيادة بأحرف تزاد في الكلمة، لكنها لا تشكل جزءا من الكلمة ذاتها.

أما الخليل، فقدسجل أن الكلمات تتكون من ثلاثة أنواع: ثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ملاحظاً أن كل حرف من الحروف التسعة والعشرين العربية يأتلف مع حرف آخر إذا كانت الكلمة ثنائية، ومع حرفين إذا كانت الكلمة ثلاثية، ومع ثلاثة أحرف إذا كانت الكلمة رباعية، ومع أربعة أحرف إذا كانت الكلمة خماسية. وحسب تأليف الحروف فيما بينها، يحسَب الخليل إمكان تنوع الكلمة الثنائية بطريقتين، والكلمة الثلاثية بست طرائق، والكلمة الرباعية بأربعة وعشرين طريقة، والكلمة الخماسية بمائة وعشرين طريقة. إلا أنه يلاحظ أن تأليفات قليلة لا غير من هذه التأليفات هي التي تعد تأليفات مستعملة فيما تعتبر غالبيتها مهملة. وعلى غرار سيبويه، يميز الخليل، في أشكال الكلمات، ما هو أصلي مما هو زائد.

وإذن، فإنه يمكننا القول إن مفهوم «الجذر»، بوصفه مجموعة من الحروف ترتبط بها دلالة عامة، لا يوجد لا لدى هذا النحوي، ولا لدى هذا المعجمي من القرن الثامن. حيث أن سيبويه والخليل يفكران في الكلمات لا في «الجذور». حيث أنه لا يوجد، في المصطلحية المستعملة، ما يشير إلى مفهوم «الجذر». فمفهوم «الأصل»، الذي كان بإمكانه أن يشير إلى حيث يدل عندهما على الحالة الأصلية للكلمة، أي الحالة السابقة على التغيرات الصوتية والصرفية التي قد تلحق بها.

وفي القرن التاسع، نجد لدى المبرد (المتوفى سنة 898هـ) الطريقة نفسها في تصور تَكَوُّن الكلمات، غير أننا نلاحظ، عنده، تطوراً في استعمال كلمة «أصل»، الذي استعمله سيبويه دائماً في صيغة المفرد، وبالمعنى الذي سبق لنا أن ذكرناه. فالمبرد يستعمل لفظ «الأصل»، باعتباره نعتاً لكلمة الحرف، سواء عُبَّر عنه بقيمة نعتية أم لا، وذلك ليصف حرفاً معيناً بكونه «أصلياً»؛ وقد أصبحت كلمة «أصول» بصيغة الجمع مرادفة لـ «أصلي» الذي أضحى يرى النور.

وفي النصف الأول من القرن العاشر، نجد النظريات نفسها والمصطلحية نفسها، لدى النحاة من مثل ابن السراج (المتوفى سنة 928هـ) والزجاجي (المتوفى سنة 951هـ). إلا أن نظريات جديدة تتعلق بالعلاقة بين تجميع الحروف ودلالتها قد ظهرت في النصف الثاني من القرن العاشر، لدى النحوي ابن جني (المتوفى سنة 1001هـ) والمعجمي ابن فارس (المتوفى سنة 999هـ).

فقد واصل ابن جني استعمال كلمة «أصل» لتعني كل حرف من الحروف «الأصلية» التي تُكوِّن كلمة معينة، إلا أنه يطبقه كذلك على تجميع الكلمات التي تشكل «أساس» الكلمة. وهكذا، يحدد هذا المفهومَ على الشكل التالي: «الأصل عبارة، عند أهل الصناعة عن الحروف التي تلزم الكلمة في كل موضع تصرُّفها»[8]. وبالنظر إلى مفهوم «الأصل» هذا، قام ابن جني بتصنيف الكلمات: «اعلم أن الأسماء التي لا زيادة فيها تكون على ثلاثة أصول: أصل ثلاثي، وأصل رباعي[9]، وأصل خماسي، والأفعال التي لا زيادة فيها تكون على أصلين،أصل ثلاثي وأصل رباعي». وقد أعاد ابن جني حسابات الخليل في موضوع تأليف الحروف، لا انطلاقاً من الكلمات التي تُكوِّنها، وإنما انطلاقاً من تجميعها لا غير، فلاحظ أن مجموعة ثلاثية يمكنها أن تشكل ستة أصول، جميعها مستعمل، وأن مجموعة رباعية قد تشكل أربعة وعشرين أصلا، تستعمل منها أربعة فقط، وأن مجموعة خماسية قد تشكل مائة وعشرين أصلاً، يُستعمل منها أصل واحد لا غير[10].

ومن جهة أخرى، بحث ابن جنيعن الدلالة المشتركة، وهو يربط المجموعة بالمعنى، في كل أصل من الأصول الستة المستخرجة من مجموعة ثلاثية. فبخصوص الحروف الثلاثة المكونة لكلمة «قول»، على سبيل المثال، يقول ابن جني:

«إن معنى «ق و ل» أين وجدت، وكيف وقعت، من تقدم بعض حروفها على بعض، وتأخره عنه، إنما هو للخفوف والحركة»[11].

ويقول بخصوص الحروف التي تتكون منها كلمة «كلام»:

«وأما «ك ل م » فهذه أيضا حالها، وذلك أنها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة»[12].

كما يعثر ابن جني، في المجموعة (ج ب ر)، على مفهومي القوة والشدة؛ وفي مجموعة (ق س و)، على مفهومي القوة والإجتماع؛ وفي مجموعة (س ل م)، على مفهومي الإصحاب والملاينة[13].

وقد أفضى هذا البحث بابن جني إلى تمييز اشتقاقين للكلمات، يحددهما على النحو التالي: «فالصغير.... كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقراه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه... وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل منها عليه»[14].

وهكذا، نرى، عند ابن جني، ولأول مرة، ظهور مفهوم «الأصل» وفكرة وجود صلة بين مجموعة معطاة من الحروف ودلالة مشتركة بين التأليفات المختلفة المستخرجة منها.

ونجد أيضاً مفهوم «الأصل» عند ابن فارس، وهو معجمي معاصر لابن جني. إلا أن الأصل، عنده، لا يعني الأصل الصوري، وإنما الأصل الدلالي. إذ يعتقد ابن فارس أن تأليفاً من الحروف يتوافر على مفهوم أو عدة مفاهيم «أصلية» يحاول استخراجها بعناية من كل تأليف. ففي التأليف (أ ب ب)، مثلاً، يميز مفاهيم أصلية هي: المرعى والقصد والتهيؤ، وفي التأليف (أ م م)، يفرز مفهوما أولَ أصلياً ينشق إلى أربعة مفاهيم فرعية هي: الأصل والمرجع والجماعة والدين، وثلاثة مفاهيم

أخرى أصلية هي:القيمة والحين والقصد؛ وفي التأليف (أ ب ل)، يميز أربعة مفاهيم أصلية هي: الإبل والاجتزاء والثقل والغلبة[15].

كما نجد، مرة أخرى، لدى النحاة من قبيل ابن عصفور (المتوفى سنة: 669هـ) والأستراباذي (المتوفى سنة: 1023هـ)، في القرن الثالث عشر،نفس مفاهيم الحالة الأصل والحرف الأصل، ونلاحظ ظهور مصطلح جديد لتفسير صفة الأصلي، ويتعلق الأمر بمصطلح «الأصالة». غير أننا نلمس،على وجه الخصوص، تطور التفكير في موضوع نظريات الاشتقاق، التي جددها ابن جني، وكذا العلاقات الموجودة بين الأصل والفرع.

هكذا، قدم ابن عصفور تعريفين للاشتقاق الأصغر. وإذا كان التعريف الأول، في رأيه، هو تعريف النحاة العرب: «إنشاء فرع من أصل يدل عليه نحو «أحمر»، فإنه منشأ من «الحمرة»، وهي أصل له وفيه دلالة عليها»[16]، فإن التعريف الثاني تعريف يقترب من تعريف ابن جني:

> «والحد الجامع لهذا الضرب، من الاشتقاق - أعني الأصغر - هو» عقد تصاريف تركيب، من تراكيب الكلمة، على معنى واحد، أو معنيين متقاربين. وذلك نحو ردك «ضارباً» و«ضرَّاباً» و«ضروباً» و«مِضراباً» وأمثالَ ذلك إلى معنى واحد»[17].

ويفسر ابن عصفور لماذا أعطيت للفرع هذه التسمية، وذلك بأخذه كلمة «مشتق» في معناها الأصلي الذي «تفرع»:

> وأما «المشتق» فيقال للفرع، الذي صيغ منه الأصل، لأنك تطلب معنىالأصل، في الفرع، فكأنك تشتق الفرع، لتخرج منه الأصل، وكأن الأصل مدفون فيه. والمشتق منه هو الأصل»[18].

وعلى الاعتراض التالي:

«فإن قيل: فكيف يصح أن يقال في الفرع إنه مشتق من الأصل – أي مأخوذ منه – والأصل لا ينفصل من الفرع؟».

يرد ابن عصفور قائلاً:

«فالجواب أن ذلك يصح، على جهة الاستعارة والمجاز. ذلك أنه لما كان لفظ الفرع مبنيا من حروف الأصل، وكان معنى الأصل موجودا فيه، صار لذلك كأنه جزء من الأصل، وإن كان الأصل لم ينقص منه شيء»[19].

غير أن ابن عصفور يعترف بحدود الاشتقاق فيصرح قائلاً:

«ورأوا أنه لا ينبغي أن يُضم، من ذلك، إلا ما كان الجمع بينه وبين أصله واضحاً جداً. فإن لم يكن وجه رجوع اللفظ إلى غيره بينا – بل التكلف فيه باد – وجب أن يدعى أنهما أصلان، وليس أحدهما مأخوذا من الآخر»[20].

ويقدم ابن عصفور «حمار» و«حمرة» كمثال عن ذلك، إذ من الضرر ردهما إلى أصل واحد.

أما بالنسبة إلى الاشتقاق الأكبر، فإن ابن عصفور يعرفه كالآتي «هو عقد تقاليب الكلمة كلها على معنى واحد»، وإن أضاف أنه لا أحد قد قال بذلك من النحاة غير ابن جني[21].

وبالفعل، فإنه يبدو أن الاشتقاق الأكبر لم يكن له عند النحاة إلا الصدى القليل، نظراً إلى أن الأستراباذي لا يذكره، وفي الحقيقة، فإنه لا يعرف من الاشتقاق إلا الاشتقاق الأصغر، أي حسبه: «كون إحدى الكلمتين مأخوذة من الأخرى، أو كونهما مأخوذتين من أصل واحد»[22].

لقد كانت نظرية الاشتقاق، مع ابن عصفور، قد ترسخت بصفة نهائية، وفي القرن الخامس عشر، انكفأ النحوي السيوطي (المتوفى سنة 1505هـ) على صياغة تعريفات سابقيه، مستعملا ألفاظاً أخرى.

فهو يحدد الاشتقاق باستعماله الكلمات «صيغة»، و«مادة»، و«هيئة»:

«أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية، وهيئة تركيب لها؛ ليُدل بالثانية على معنى الأصل،بزيادة مفيدة»[23].

أما فيما يخص الأصل والتطورات اللاحقة به، فإن السيوطي يحددها كما يلي:

«فالأصل .... يراد به الحروف الموضوعة على المعنى وضعاً أولياً. والفرع لفظ يوجد فيه تلك الحروف مع نوع تغيير ينضم إليه معنى زائد على الأصل»[24].

وفي نهاية هذا البحث حول مفهوم «الجذر»، لدى النحاة العرب القدماء الأكثر تمثيلية، يمكننا القول إن هذا المصطلح يبدو غير مناسب ليدل على ما يفهمه النحاة من كلمة أصل التي من المفروض فيها أن تنقله. وفي الحقيقة، فهذه الكلمة تغطي، كما رأينا، ثلاثة مفاهيم: مفهوم الحالة الأصلية، ثم مفهوم الحرف الأصلي، وأخيراً مفهوم مجموعة الحروف الأصلية. وللتعبير عن هذا المفهوم الأخير، يبدو أن مصطلح «أصل» مفضل على مصطلح «الجذر».

إن مفهوم الجذر قد تأتى من كون المستعربين الأوربيين الأولين في القرن السابع عشر، بيير كيرستن Pierre Kristen وطوماس إيربينيوس Thomas Erpenius، في الأنحاء التي وضعاها باللاتينية، قد ترجما كلمة أصل بـ radix التي هي، بالفعل، واحدة من مفاهيم هذه الكلمة التي يعرفها المعجمي ابن منظور بوصفها «أسفل كل شيء».

ويبدو، كما اقترح ذلك بروكلمان Brockelmann، أن النحاة اليهود قد أخذوا، هم أيضا، كلمة أصل بالمعنى الذي تحمله كلمة «جذر»، وخاصة منهم المعجمي الأندلسي ابن جناح من القرن الحادي عشر الذي ألف معجما عبريا سماه: كتاب الأصول.

وختاماً، فإني أرى، بخصوص النقاش الذي فرَّق دارسي اللغات السامية حول مفهوم «الجذر» ، أنه كان من المفيد التذكير برأي النحاة العرب القدماء في هذا الموضوع.

الهوامش

(1) Blach ère . R .etGaudefroy- Demombynes. M. (1952). Grammaire de l'arabe classique. Paris. p. 13. .

(2) Fleisch.H. (1961). Traité de philologie arabe . Beyrouth. vol. 1. p. 248.

(3) Cohen. D.. Langue arabe . dans EncyclopediaUniversalis. vol. 2 . p. 200.

(4) Renan. E.. (1855) Histoire générale et système comparé des langues sémitiques.Paris. p. 455. .

(5) Brockelmann.C. (1910). Précis de linguistique sémitique. Paris. p. 113-114. .

(6) Brockelmann. C. (1907). Grundriss der vrgleichendengrammatik der semitischenSprachen. Berlin. t.1. p.286-287.

(7) Cantineau. J. (1950). "racines et schèmes" . Mélanges William Marçais. Paris. p.119.

(8) ابن جني، التصريف الملوكي، طبعة النعسان. حلب. 1970. ص 10.

(9) ابن جني، المنصف، منشورات المصطفى، القاهرة 1954، ص 17.

(10) ابن جني، الخصائص، منشورات مزعز النجار، القاهرة 1955، جز 1، ص 61.

(11) ابن جني، مصدر سابق ذكره، ج 1، ص 5-11.

(12) ابن جني، مصدر سابق ذكره، ج 1، ص 13-17.

(13) ابن جني، مصدر سابق ذكره، ج 2، ص 135-136.

(14) ابن جني، مصدر سابق ذكره، ج 2، ص 133-134.

(15) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، منشورات القاهرة، ج 1، وما يليه.

(16) ابن عصفور، الممتع في التصريف، منشورا ت ف. قباوة، بيروت، 1970. ج 1، ص41.

(17) ابن عصفور، مصدر سابق ذكره، ص 43.

(18) ابن عصفور، مصدر سابق ذكره، ص 44.

(19) ابن عصفور، مصدر سابق ذكره، ص 44.

(20) ابن عصفور، مصدر سابق ذكره، ص 41.

(21) ابن عصفور، مصدر سابق ذكره، ص 40.

(22) الأستراباذي، شرح الشافية، مطبوعات القاهرة، ج 2، ص 334.

(23) السيوطي، المزهر، مطبوعات القاهرة، ج 1، ص 346.

(24) السيوطي، الأشباه والنظائر، طبعة القاهرة، ج 1، ص 57.